صور من الحياة :

خيـــانة امرأة

— ١ —

للاستاذ كامل محمود حبيب

يا قارئي :
هذا صاحبي انضم على أشجانه حيناً من الزمان ، يكتم الأسى بين جوانحه ويدفن الضنى بين ضلوعه حتى أتاه الهم وأرهقه الوجد ، فجاء ينثر عبرات قلبه بين يديك علك تسمع إليها أنات روحه الحزينة أو تحس وجيب نؤده الكسير ، فتلفحك حرقة اللوعة أو تهزك سفعات الضيق ، فتهديه الى الرأى الذى عذب عن فكره وتبصره بالصواب الذى ند عن عقله . فهل تعينه برأى منك فيه العقل والصواب ؟

كامل

يا عجباً ! ما للطبيعة الوادعة تثور على حين فجأة فيضطرم الغيظ فى جوانبها ويحتدم أوار الغضب فى نواحيها ، فلا تسكن غائلتها إلا أن تنثر معانى الموت والدمار فى ثنايا الحياة الوثابة ، وإلا أن تنقث آثار الخيبة والضياع فى زوايا الأمل الباسم ، وإلا أن تبذر غراس الأسى والكمد فى أضعاف القلوب الهادئة المطمئنة ؟

يا لقلب الانسان حين تتناوحه ثورات الطبيعة الجارفة فلا يجد مفزعاً من الرياح الهوج وهى تعصف حواليه زقرقة تريد أن تلفه فى إعصار من الهم ، ولا من الموج العاتى وهو يهـــدر مهتاجاً يحاول أن يبتلعه فى يم من الوجد ، ولا من الصواعق القاسية وهى تنحط عليه لتنفضه بين شحنتين من الضيق والملل ، ولا من البركان الثائر وهو يقذفه بالحمم لظى يتوقد وهيجه يبتغى أن يحرقه بنار الشجن !

يا لقلب الانسان حين تتعاوره ثورات الطبيعة الجارفة فلا يجد مفزعاً إلا أن يسمو عن النزعات الترابية ، وإلا أن تعلو روحه عن المعانى الأرضية ، فيقبس من نور السماء الهدى والراحـــة والسكينة حين يطمئن قلبه بالايمان وتهـدأ خواطره بالعقيدة

جلس إلى صاحبى بعد أن حجبته نوازع العيش عنى سنوات ، فمز على أن أراه خاشع الطـــرف كاسف البال مطأطىء الرأس مضطرب الخاطرة ، وهو كان فتى طروباً يتنزى مرحاً وبهجـة ، ويتوثب سروراً وفرحاً . وعز على أن ألمس سمات الأسى تضطرم فى أغوار قلبـه فتعبث بشبـابه وتنقص من نضارته ؛ وأن أحس لفحات الحزن تتأجج بين طيات ضلوعه فتذره ضميقاً واهياً يتعبد للجزع فتنحط قوته ويستذل للهم فيضوى عوده ، وهو رجـل فيه القوة والفتوة لا يعجزه أن يجد أسباب المتعة ، وفيـه العقـل والثراء لا يؤوده أن يسرى عن نفسه بعض أشجانها ، وفيه الرأى والنشاط لا يهون عن أن يتلمس مسالك الروح

وجلست أنا إليه أنفضه بنظراتى وقد انعقد لسانى عن الكلام لأنى شعرت بأن روحه غريبة عن روحى ، وأن نوازعه لا تواتم طبعى ، وانطوت ساعة من زمان

وتكلم صاحبى بعـد صمت ، فبدا لى كأن كلماته تصاعد من أعماق نفسه ، أنات ينتفض بها قلبه الواهى ، وهو يئن تحت وقر من الأسى بطحنه فى غير شفقة ولا رحمة ، فقال : أما قصتى فهى :

لقـــد كانت هي فتاة قاهرية تتأنق فى ريق الشباب وتتألق فى بهجة العمر ، لم تسم إلى أوج الجمال ولا انحطت إلى قرار الدمامة شذبتها المدنية فنزعت عنها حماقات الجهل والغلظة ، وصاغتهـــا الحضارة على نسق من الرقة واللين ؛ ووسمتها المدرسة بطابع من الدهاء والمكر ، وصبغتهـا السيما بفنون من الأنوثة والدلال ، فبدت كالزهرة الفواحة لا يحجبها الورق ولا يمنعها الشوك . أما أنا فكنت فتى بدوى الطبع ريفى الشمائل مدنى العقل ، أترفع عن خـداع المدنية وأتنزه عن لؤم الحضارة وأسمو على جنس الحيوانية

وتلاقينا على ميعـاد ، فراقنى منها ... أول ما راقنى ... أن أراها تشاركنى الرأى فى غير خضوع وتجاذبنى الحديث فى غير جهل . وعهدى بالمرأة فى الريف تمعن فى الحجاب فلا تجلس إلا إلى محـرم ولا تتزين إلا لزوج ، تعيش فى زاوية من الدار همـلا كأنها بعض المتاع ، لا رأى لها ولا عقل . وأعجبنى أن أحس فى فتاتى الأنس والسكينة فعقدت العزم على أمر

وانطلقت إلى أبى فى القرية أنشر أمامه طوايا نفسى المشرقة وأحدثه بأمل قلبى الغض ، فرمقنى بنظرات فيها الشفقة والحنان غير أنها كانت تنطوى على معانى جياشة من الازدراء والمقت ، ثم قال فى استسلام « أنت وما تريد ، يا بنى ! » فأحسست فى صوته

نبرات الكراهية والبغض واستشعرت فى كلمات رنات الرفض والاباء. وحز فى نفسى أن أرى أبى يحكم عنى الرأى ويضن بالنصيحة ؛ فقلت له. ياأبى ، إننى ألمس من وراء كلامك دوافع نفسك وخلجات فؤادك ، فلماذا تمسك عنى الرأى وتبخل بالمشورة؟» قال « يابنى ؛ إن فى الشباب جماحاً يدفعه عن أن يستسيغ الرأى ، وإن به شماساً ينزعه عن أن يسمع حديث العقل . فهو عبد الرأى الغطير والفكرة الفجة » قلت « ولكننى أوقن بأن فى الشباب ولاء لانقيمها إلا تجارب الشيوخ ، وأن فيه عجزاً لايكفله إلا عقل الشيوخ ، وأن فيه نزوات لايقيدها إلا رأى الشيوخ » قال « وفى الشباب بريق يخطف البصر ، بريق يتألق فى حديثهم وهو يتسم — دائماً — بسمات المنطق المصنوع والفلسفة الخاوية ، بريق يتألق فى الحديث ويخبو فى العمل » قلت « وماذا يضيرك إن أنت أسديت النصح لأبنك ؟ لعلك تخشى أن لاتجد أذناً تسمع ولا قلباً يعى ؛ أو لعلك تضن بتجاربك على بعد أن بلغت مبلغ الرجال وأصبحت موظفاً فى الحكومة ، خيفة أن أسخر من رأى أو أن أهزأ بفكرة » قال « يابنى ، لست أخشى رأى الشباب فى عقل الشيوخ » ثم أخذ أبى يناقشنى فى عنف ويجادلنى فى شدة لابنى عن أن يصرفنى عن نوازع نفسى ويدفعنى عن رغبات قلبى فقال « إن القرى ، يابنى ؛ لايحس فى الزوجة إلا المتعة والمتاع ولا يطلب إليها إلا الطاعة والاستسلام ، أما أنتم فتلتمسون فيها الرفيقة والصاحبة . والرفيق — فى رأيى — هو عون رفيقه وساعده ، وهو هدى صاحبه إن ضل ونبراسه إن تاه وموئله إن سدت فى وجهه السبل ، فهل تستشعر فى فتاتك معانى الرفيقة ؟» قلت « نعم ، فأنا أرى فيها العقل والرأى معاً » قال وهو يبسم فى سخرية « إن المرأة لاتجد العقل إلا فى الشارع » قلت « وهى تجده فى العلم وفى المدرسة وفى الجامعة » قال فى جد « وبين البيت والمدرسة أفانين من الحياة وصنوفاً من العقل تتفقها الفتاة فى غدوها ورواحها فتتقنها قبل أن تتقن الدرس ، وتجيدها قبل أن تجيد العلم ، وتعيها قبل أن تعى المطالعة » قلت « ولكن الفتاة العاقلة المهذبة تثور معانى الشرف والكرامة فى دمها فتسمو بها عن الزلل وترفعها عن السقوط» قال « وهل تستطيع المرأة العزلة أن تحبس دم الشباب الفوار عن أن يصرح فى عروقها صرخات شيطانية وضيعة حين تجلس إلى الرجل فى غير رقيبة ولا حذر ؟ » قلت « ياأبى ! إنك تتجنى على المرأة المتعلمة » قال « وفى رأيى ، إن المرأة المتعلمة لاتتورع عن أن تسلك إلى قلب زوجها مسالك فيها الخديعة والمكر ، ولا تترفع عن أن تنفذ إلى مال زوجها فى مسارب فيها الاغراق فى التبديد والافراط فى البذل ؛ فلا تبقى على عهد ولا تبقى على مال » قلت « هذا غلو ، ياأبى » قال « واذا تفانت النساء فى الدار جمعن إلى نزوات الطامعات مكر الخائنات وجعلت مكانتها فتستحيل طمأنينة الزوج الى فزع ما ينتهى ويحور هدوء الدار الى ثورة ماتنقضى . ان المرأة التى تلد الفلسفة تلد الهم والأسى والضيق فى نفس الرجل . . » قلت « ياأبى . . » فقال هو مقاطعاً « فاذا لم تصلك بزوجك صلات من القربى ووشائج من الدم عبثت بشرفك وفرطت فى كرامتك وبددت ثمار كدك » قلت فى لهفة « ولكنى . . . » قال « ولكنك تحب فتاتك . لاعجب ، فهى قد افترتك عن نفسك وخدعتك عن عقلك وسحرتك عن صوابك ، لأن المرأة المتعلمة كالثعلب تمكر بصاحبها حتى يقع فى شباكها ثم لاتلبث أن تذيقه وبال غفلته وحمقه » قلت « ياأبى ، لاريب فنزوات الشباب تطم — دائماً — على العقل وتعصف بالرأى ، وسأفكر فيما قلت »

***

وخرجت من لدن أبى بعد أن عزنى فى الخطاب ، وان كلماته لترن فى أذنى وان حديثه يدوى فى عقلى فعزمت على أن أنبذ فتاتى الى فتاة من ذوى قرابتى

وانطوت الأيام فاذا أنا الى جانب فتاتى القاهرية أبثها لواعج الهوى وأشكو اليها حرقة الغرام ، ثم مالبثت أن سميت على فخطبتها فتزوجها . ووقف أبى الى جوارى ليلة الزفاف وقف كارهاً وهو ينفض بنظرات فيها الألم والحسرة ، فاضطرب قلبى وتزعزعت سكينتى وتزوجتها فماذا كان منها وماذا كان . . ياقلبى ؟

(يتبع)

كامل محمود حبيب